

أرض السواد عبر العصور.. نظرة تاريخية تحليلية



أ.د. خضير عباس جدوع

كلية الزراعة - جامعة بغداد

مدخل :

- اشتهر العراق خلال عصوره كافة بالزراعة ، وبدء أول عصر للزراعة في بلاد الرافدين ، وهو أول عهد للإنسان بتعلم الزراعة وكان ذلك بحدود 9000 سنة ق.م.
- وقاد ذلك الى نشوء حضارات عديدة على أرض العراق وعلى امتداد 7000 سنة على يد البابليين والسومريين والاكديين والاشوريين ، ومن بعدهم المسلمين ..

من أين جاءت كلمة أرض السواد ؟

- عرف العراق بسعة وامتداد أراضيهِ المزروعة وخصوبة تربتها التي كانت مضرب الامثال .
- فقَدّر هيردوتس من القرن الخامس ق.م غلتها بمائتي ضعف فكانت اراضيهِ خضراء دائمة فسميت بالسواد لسواد ارضه بالزروع والاشجار ولاسيما النخيل وشدة اخضرارها وكثافة زرعها ، والخضرة عند العرب تقارب السواد .

من اين جاءت كلمة العراق ؟

- يرجح بعض المستشرقين أصل كلمة (العراق) هو مدينة اوروك السومرية القديمة (الوركاء الان).
- يرى البعض الاخر ان كلمة (العراق) مصدرها العروق نسبة الى النهرين دجلة والفرات والذان لاهميتها شبا بالعرق او الوريد.
- ويرى البعض انه سمي (بالعراق) نسبة الى عروق اشجار النخيل المتواجدة بكثرة في وسط وجنوب العراق.
- بينما يرى اخرون ان أصل التسمية هي عراق المنطقة الموغلة بالقدم.
- بغض النظر عن أصل كلمة (العراق) فإن معظم المنطقة المسماة حالياً بالعراق كانت تسمى بلاد ما بين النهرين (بيت نهرين Beth-Nahrain) باللغة الارامية ، و ميزوبوتاميا (Mesopotamia) باللغة اليونانية .

العصر القديم :

- ملامح الزراعة في العصور القديمة :
- ينقسم سطح العراق الى منطقتين رئيسيتين :
- السهل الرسوبي الجنوبي (سومر وأكد عند الاقدمين) ثم منطقة المراعي ابتداء من شمال تكريت المرتبطة بسفوح التلال والجبال حيث تنمو الاشجار والنباتات الطبيعية وفيها مناطق خصبة تزرع على الديم بالشتاء والربيع وهي (بلاد آشور عند الاقدمين) . وتنمو في الاخيرة الاعشاب والاشجار في الربيع الى جانب اشجار البلوط والصنوبر والهور في الجبال.

- في مرتفعات شمالي العراق تم الاهتداء الى الزراعة في حدود الالف الثامن ق.م حيث المطر الوفير والمناخ الملائم لنمو الحنطة والشعير في منطقة تل جرمو القريبة من جمجمال. وهناك أصل زراعة حنطة الخبز حيث وجدت في البيوت التنانير وزرعت الى جانب الحنطة والشعير بذور العدس والحمص والكتان.

- كانت الزراعة مهمة عند العراقيين القدامى حيث يعتمد عليها رخاء البلد لذا كثرت عندهم آلهة المياه والخصب ، فكان إله الماء أيا وزوجته ربة الأرض من الالهة المهمة . وللحبوب إلهها الخاص بها وكذلك آلهة الاهوار والبساتين والمناطق الرعوية والحقول.

- أثرت الزراعة في نواحي الحياة كافة ففي الكتابات الأدبية هناك تشبيهات مأخوذة في الحياة الزراعية ، فشبهاوا تحمل الظروف القاسية بصبر القصب وصار الفلاح عند السومريين رمز السعادة.
- وهناك تشبيهات أدبية لكاتب من العصر البابلي القديم مستمدة من عالم الزراعة بما يشير الى التعلق بها :
- ((إن أمي مطر السماء ، انها الماء الذي يروي أحسن البذور ، انها الحصاد الوفير الذي يقدم محصولاً ثانياً ، انها بستان من البهجة مملوءة بالمرح ، انها شجرة الشريين المملوءة بالمخاريط ، انها الفاكهة الاولى المبكرة ، انها قناة تجلب المياه الوافرة الى قنوات الارواء انها تمر دلمون الحلو في موسمها)).

- قام العراقيون منذ اقدم الازمنة بتتبع الخصائص الطبيعية وتأثيراتها في الزراعة ، فعرفوا موسم الفيضان والاحوال الجوية وموسم كل محصول من المحاصيل الصيفية والشتوية ، واتفقوا مسح الاراضي لتحديد ملكية كل ارض وكانت لهم اوزان ومكاييل ومقاييس ثابتة. وعرفوا التقويم واحتساب الزمن والزراعة المتخصصة منذ وقت مبكر (أي ما يعرف بالتركيبية المحصولية حالياً).

- عرف العراقيون القدامى الارشاد الزراعي من حوالي (1700 ق.م) وهذا يعكس تقدمهم آنذاك بالزراعة والمهم بأصولها ومواعيدها.

- فهناك مقالة ارشادية سومرية هي سلسلة من الارشادات موجهة من فلاح سومري لولده :
- اهتم بالسقي ولا تجعل الماء يطغى فوق الحقل.
- تطهير الحقل من الحشائش الضارة والاشواك.
- التأكد من وجود ثور احتياطي عنده تحسباً لما قد يحدث لثوره فيتأخر العمل.
- ضرورة تقليب الارض مرتين بالمعول مرة وبالمجرفة مرة اخرى ، وان يستخدم المطرقة لتكسير كتل الطين.

- وجوب القيام بالحرث والبذر معاً وان يحرت ثمانية اخاديد بكل قطعة ارض مساحتها عشرون قدم ويتأكد من وضع البذور في الارض بعمق متساو وهو على عمق اصبعين (يعادل 5-6 سم) ، وهذا هو عمق البذار المناسب حالياً .
- حرث انواع مختلفة من الاخاديد مستقيمة ومائلة .
- تغطية البذور بطبقة خفيفة من التراب لتخرج البذور بسهولة .
- تلاوة دعاء الى الهة جردان الحقل والحشرات عند خروج النبتة لدفع الضرر عنها .

- - دراس المحصول Threshing بعد الحصاد فوراً ، واداء الصلاة حالما تنفصل الحبوب ، وتذرى Winnowing بعد ذلك بالمداري لخمسة ايام.

- تجدر الاشارة الى ان الفلاح القديم يزرع حقله بطريقتين الاولى بحرث الارض ثم بذرها وتغطية البذور (طريقة النثر) ، وفي الثانية يربط قمع البذور بالمحراث لضمان التوزيع المتساوي للبذور (تعادل الالة الباذرة حالياً).

- مشاركة المرأة للرجل في الفلاحة اذ ترينا الاختتام الاسطوانية والمنحوتات امرأة تحمل مذراة.
- التشريعات والقوانين المختلفة التي نظمت الزراعة ومعاملاتها وشؤونها ولأدق التفاصيل.
- استخدام الآلات الزراعية كالسكاكين والمناحل الصوانية واحجار دق الحبوب ، والفؤوس ، والمحاريث للحرث ثم للحرث والبذر معاً (تعادل الآلة الباذرة حالياً) . كما استخدموا المسحاة المصنوعة من الحجر الصلب اولاً ثم من المعدن وكذلك آلة الجرجر المستخدمة في دراس المحصول.

- كانت اكثر المحاصيل شيوعاً خاصة في الجنوب الشعير والحنطة كما زرعت الذرة والماش والعدس والدخن ولاحقاً الرز ومن ثم القطن في زمن سنحاريب ، كما زرع السمسم ومعناه حب شجرة الزيت.

- زرعت البساتين ايضاً منذ العصر السومري القديم وفي ظلال النخيل زرعت انواع الاشجار الظلية ومنها العنب ، وزرعت في البساتين ايضاً البنجر بنوعيه الاحمر والابيض ثم الثوم والبصل ، وكذلك الكراث والرشاد. كما زرعت اشجار التين والتفاح والمشمش والسفرجل والزعرور والكمثرى والرمان ، كما زرعت في البساتين انواع الخضراوات مثل اللفت والفجل والسلك والكزبرة والكمون.

- كانت النخلة اهم شجرة في البساتين وعرف العراقيون القدامى تكاثر النخيل بالفسيل وطريقة ترك المسافات بين النخيل ، والتلقيح مدركين تكونها من جنسين منفصلين ذكر وانثى.

- وما تزال التعابير المستخدمة في زراعة النخيل وجنيه تحتفظ بأصلها البابلي مثل تال وتبليه (آلة التسلق) والشيص (التمر غير الملقح).

- الاهتمام بالمراعي وتربية وتنمية الثروة الحيوانية.

- كان اساس ثراء المدن السومرية الاولى خصوبة التربة التي اعتمدت على الارواء بنظام واسع من السدود والقنوات ، وكان الرخاء مدهشاً الى الحد الذي اعتبر السومريون نظام الري المتكامل من عمل إله.
- تجاوز الاستهلاك المحلي من السلع الزراعية وتصدير الفائض الى الخارج.

العصر الاسلامي

اللبنة الاولى العظيمة :

- وضعها النبي الاكرم محمد (ص) حتما قال : ((من غرس شجراً او حفر وادياً لم يسبقه اليه أحد واحيي ارضاً ميتة فهي له قضاء من الله عزوجل ورسوله)). معنى هذا الحديث الشريف ان الارض لله تعالى وللانسان الذي يعمر تلك الارض ، وان هذا حكم الله ورسوله .

- بعد ذلك وفي عصر الخلفاء الراشدين عني المسلمون عناية كبيرة بالزراعة واهتموا باصلاح شبكات الري وبناء القناطر وتحسين الغلة الزراعية واحياء الارض الموات والاهتمام بالغرس والمساقاة.

- فكان العصر الذهبي للزراعة اذ طور المسلمون منهجاً علمياً للزراعة يستند الى ثلاثة عناصر رئيسة وهي :

- انظمة متطورة لتناوب المحاصيل.

- درجة عالية من التطور في تقانات الري.

- ادخال مجموعة كبيرة ومتنوعة من المحاصيل التي خضعت للتجارب والتصنيف تبعاً للموسم ونوع الارض وكمية المياه التي تحتاجها.

- فأدخل المسلمون زراعة المحاصيل النقدية ونظام حديث لتناوب المحاصيل حيث كانت الاراضي تزرع اربع مرات او اكثر في مدة سنتين ، المحاصيل الشتوية وتليها المحاصيل الصيفية.
- وفي المناطق التي كان يزرع فيها نباتات ذات موسم نمو قصير مثل السبانخ والبادنجان يمكن ان تتم الزراعة ثلاث مرات او اكثر في السنة.
- وفي اجزاء من العراق كان الرز يحصد مرتين في السنة في نفس الارض.
- وبالنسبة للري يقول الكاتب جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي)

- ان السدود المنشأة على نهر دجلة في العراق من بداية دخوله عبر تركيا في مدينة الموصل حتى بغداد في وسط العراق كانت تبلغ في هذه المسافة (500 كم) زهاء اربعين سداً . حالياً اثنان فقط هما سد سامراء وسد الثرثار.

بغداد والزراعة

- كان لبناء ابي جعفر المنصور مدينة بغداد عام 145 هـ - 762 م واختيار موقعها على نهر دجلة اهمية كبيرة في احياء الاراضي واستصلاحها واقامة المشاريع الاروائية.
- في هذا الصدد يقول الرحالة ابن جبير عندما زار بغداد عام 580 هـ - 1158 م (وحسبك من شرف موضع بغداد ان دجلة تسقي شرقيها والفرات يسقي غربيها ، وهي كالعروس بينهما).

- في زمن الدولة العباسية لم تقتصر الجهود في مجال احياء الارض واستصلاحها او اقامة العديد من مشاريع الري على مدينة بغداد وحسب وانما امتدت لتشمل مساحات واسعة من الاراضي التي عرفت ((بسواد بغداد)) او ((ريف بغداد)).
- تنوعت وسائل الري لاسيما الري بالواسطة كالدالية والنواعير والدولاب.
- بنيت القناطر على كثير من افواه القنوات لتنظيم توزيع المياه و لرفع مستواها في القنوات الفرعية لتسهيل السقي سيجاً.

- استخدم العباسيون مقياساً لتسجيل مناسيب المياه لمعرفة خطر وقوع الفيضان ، ونذكر هنا ما كتبه ابن الجوزي في كتابه (المنتظم) عن حوادث سنة 293 هـ / 905 م (ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طول خمسة وعشرون ذراعاً ((ما يساوي نحو اثني عشر متراً ونصف المتر)) وعلى كل ذراع علامة مدورة ، وكل خمسة اذرع علامة مربعة مكتوب عليها بحديدة علامة الاذرع تعرف بها مبالغ الزيادات).

- تنوعت طرائق الزراعة في بغداد ايام العباسيين وكان ذلك يتوقف على نوع الغلة المراد زراعتها : حبوباً أم نخيلاً او فواكه.

- بالنسبة للحنطة والشعير كان المتبع الحراثة اولاً ثم نثر البذور بعد الحرث وتغطيتها.
- بالنسبة للنخيل والفواكه اتبعت طريقة البذر احياناً او طريقة الغرس بواسطة الشتلات ، واستخدمت طريقة الترقيد ، وطريقة التطعيم في تكاثر الاشجار وزيادة اعدادها.
- كانت طريقة المناوبة في الزراعة هي السائدة فكان يزرع نصف الارض ويترك النصف الثاني دون زرع (دورة زراعية).
- كانت تحرث الارض بالمحراث الخشبي البسيط الذي تجره الثيران او الابقار لذلك كان يمنع ذبح البقر بهدف زيادة اعدادها واستخدامها في الحراثة.

- كان الفلاح البغدادي يستخدم بعض الوسائل لمكافحة الحشرات خاصة الجراد كما حدث في عام 619 هـ / 1222 م عندما ظهر جراد كثير دفعه الفلاحون بواسطة الطبول والابواق.

- وكانوا يبعدون الطيور وخاصة العصافير بتعليق بعض الطيور المخيفة كالغراب (الاعداء الطبيعية حالياً) وكانوا يستخدمون الاطفال لافزع الطيور وابعادها عن الزرع.

- اشتهرت بغداد بزراعة محاصيل الحبوب والخضراوات واشجار الفاكهة والرياحين ، وكانت بغداد تسمى (دار البطيخ) لاشتهار زراعة الرقي والبطيخ فيها. كما زرع الرمان والنخيل والبقول مثل الباقلاء واللوبيا والحمص ، ومن الخضراوات الباذنجان والسلق والفاصوليا والفجل والبصل والثوم (حالياً نستورد الثوم من الصين ؟ !).

واشتهرت ايضاً بزراعة زهر البنفسج والنرجس والياسمين والورد الجوري والقرنفل.

العصر الملكي (العراق الحديث)

- تميز هذا العصر باصدار التشريعات والقوانين المتطورة وقتها في تنظيم شؤون الزراعة وتهيئة مستلزماتها وحمايتها والتي عكست قدرة العقل العراقي المتطورة واهتمامه بالزراعة.

• تشريعات وقوانين الثروة النباتية

- اللبنة الاولى : البذور

- قانون تهيئة البذور لسنة 1925

- قانون تعيين انواع وسلالات بذور القطن رقم 26 لسنة 1927 .

- قانون تحسين انواع الحنطة وزراعتها رقم 67 لسنة 1932.

- قانون تحسين انواع الحنطة وزراعتها رقم 67 لسنة 1932.
- قانون تحسين ونقاوة المزروعات الحقلية رقم 3 لسنة 1938.
- والذي اعطى صلاحيات للوزير المختص بتعيين مناطق او مساحات يكون فيها المزارعون ملزمين بنوع من انواع البذور التي يقررها ويتم انتاج البذور في مزارع الحكومة او في بعض المزارع الخاصة باتفاق مسبق.
- قانون تنظيم زراعة المحاصيل المختلفة

- قانون زراعة الكتان لسنة 1925 وتضمن اعفاء بذور الكتان والالات والمكائن المستخدمة في زراعة الكتان من رسوم الكمارك لمدة معينة ، كما يعامل معاملة خاصة لاغراض الضريبة منتجوا الكتان . (حالياً لا وجود للكتان في العراق).
- قانون زراعة الرز ذي الرقم 53 لسنة 1940 والذي حدد بموجبه اراضي بمواصفات خاصة يسمح بزراعتها بالرز.
- قانون منع تصدير فسائل النخيل الى خارج العراق حفاظاً على ثروة النخيل.

- قانون انحصار التبغ وتحسينه رقم 35 لسنة 1939.
- قانون منح اجازة زراعة التبوغ رقم 35 لسنة 1944.
- قانون الغابات رقم 75 لسنة 1955.
- قوانين المكننة الزراعية.
- قانون المكننة الزراعية رقم 32 لسنة 1949 لتشجيع المزارعين على اقتناء واستخدام الآلات الزراعية وتأسست لذلك مصلحة المكائن والآلات الزراعية.

- قانون تشويق الزراع لاستعمال المضخات سنة 1926 والذي تضمن بعض الحوافز الى الزراع لاستعمال مضخات الري في سقاية الارض حيث اعفى القانون المزارع من الضريبة لأربعة مواسم للمحاصيل الناتجة من استعمال هذه المضخات.
- قوانين مكافحة الافات الزراعية :
- قانون مكافحة الجراد رقم 41 لسنة 1927 .
- قانون مكافحة الجراد رقم 16 لسنة 1931.
- قانون ابادة ذبابة فاكهة البحر الابيض المتوسط رقم 31 لسنة 1947.
- قانون توريد النباتات لسنة 1924 (تنظيم استيراد ودخول النباتات).

قوانين التسليف الزراعي

- قانون السلف الزراعية رقم 66 لسنة 1931.
- قانون تأسيس المصرف الزراعي - الصناعي رقم 51 لسنة 1935.
- قانون تأسيس المصرف الزراعي الخاص بالتسليف الزراعي رقم 18 لسنة 1940.

قوانين الاحصاء الزراعي

- قانون الاحصاء رقم 42 لسنة 1939 نص على تأسيس دائرة للاحصاء تسمى الدائرة الرئيسية للاحصاء.
- قانون نظام احصاء الانتاج الزراعي والحيواني رقم 84 لسنة 1940.

قوانين الثروة الحيوانية

- صدر اول قانون سنة 1924 سمي بقانون امراض الحيوانات وحل محله قانون اكثر تطوراً سمي قانون الامراض الحيوانية العفنة رقم 68 لسنة 1936 المعدل.
- قانون اصلاح جنس الحيوانات رقم 58 لسنة 1940 تضمن جملة احكام منها : منع تصدير أي نوع من الحيوانات قسماً او كلاً الى خارج العراق الا باجازة من الوزير المختص ، وتضمن ايضاً اصلاح جنس الحيوان (حالياً ذبح جائر لاناث الحيوانات وتهريب للاغنام خارج العراق).

قوانين التشكيلات الادارية

- قانون استحداث وزارة الزراعة والري سنة 1927.
- لجنة تنظيم تجارة الحبوب وفق القانون رقم 32 لسنة 1939 .
- قانون جمعية التمور لسنة 1939 .

المشترك بين العصور الثلاثة

- توفر ارادة قوية لدى الملوك والخلفاء والحكام الذين تعاقبوا على حكم العراق عبر هذه العصور في تنمية الزراعة واستثمار عناصرها (الماء والارض والمناخ والانسان) بشكل كفوء.
- القوانين والتشريعات المنظمة للزراعة.
- الاهتمام بعنصر الري وهو العمود الفقري للزراعة العراقية ، فقدم العراقيون للعالم انموذجاً فريداً في الري وتطبيقاته وتشريعاته اصبح مثار الاعجاب والاعتزاز.
- حصلت النهضة الزراعية عبر هذه العصور بدون وجود النفط.
- اذن ليس من المستغرب ان يطلق على العراق (أرض السواد)

الخاتمة

- خلق الله العراق بلداً زراعياً (كما رأينا) وكان وسيبقى زراعياً (شئنا أم أبينا) الى ان يأذن الله .
- علينا كعراقيين العمل على وفق هذه الحقيقة في مسيرة ممتدة بين الاجداد والاحفاد ليبقى العراق أرض السواد .



